المحاضرة الخامسة:

تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين

كان لتهالك الدولة الوطاسية وسقوط غرناطة سنة 1492م، أثر في تشكل نظام جديد بدأه البرتغاليون بالإستيلاء على الجنوب البرتغالي ووصلوا حتى بلغوا سوس، وهذا كلّه في غفلة من الوطاسيون الذين كانوا منشغلين عن الوضع بالصراع الداخلي ومحاربة الإسبان في الشمال، الأمر الذي استلزم حاجة العامة في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى المقابل للمحيط الأطلسي، إلى سلطة توحدهم لمقاومة البرتغاليين وطردهم، ليلتفوا في النهاية حول الدولة السعدية التي لم تحرر فقط الجنوب المغربي، بل أقامت دولة أسقطت الوطاسيين وحكمت المغرب الأقصى.

وهكذا فقد تميزت أوضاع المغرب في بداية القرن السادس عشر وجود سلطة مركزية ضعيفة غير قادرة على توحيد البلاد، وعاجزة عن الوقوف في وجه الغزو البرتغالي المتزايد، وفي المقابل تقوى نفوذ الزوايا التي أصبحت تتولى مهمة تأطير حركة الجهاد ضد المحتلين، إلى أن تهيأت الظروف بجنوب المغرب لظهور السعديين كقيادة جديدة للبلاد، وقد تمكن هؤلاء من تنظيم المقاومة ضد البرتغاليين واستعادة وحدة البلاد، والوقوف في وجه الأطماع الأجنبية.

وقد عرفت الدولة السعدية أزهى عهودها خلال فترة المنصور، حيت اكتملت خلالها تنظيمات الدولة، وتقوى نفوذها واتبع ليشمل جميع مناطق المغرب وأجزاء من إفريقيا الغربية، كما ازدادت هيبتها على الصعيد الدولي بفضل السياسة الخارجية التي نهجها المنصور، الشيء الذي كان له دور كبير في استقرار الوضع الاجتماعية بالمدن والبوادي المغربية، وانفتاح المغرب على تيارات حضارية مختلفة، وانتعاش الحياة الاقتصادية والفكرية انتعاشا كبيرا خلال النصف الثاني من القرن 16.

ولكن بعد وفاة المنصور عرف المغرب اضطرابات سياسية خطيرة بسبب الصراع على الحكم ورافق ذلك تدهور في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وترتب عن ذلك تراجع سلطة السعديين، وظهور قوات سياسية جديدة ساهمت بدورها في عودة تجزئة المغرب وتفكك وحدته.

1- الدولة السعدية:

ظهر السعديون في بلاد المغرب الأقصى على نفس المهمة التي جاء من أجلها العثمانيون إلى شمال إفريقيا، وهي تخليص المغرب الأقصى من الاعتداءات الأوربية على إثر فشل بني وطاس في الدفاع عن ممتلكات المغرب التي ما فتأت تسقط الواحدة تلوى الأخرى في يد البرتغاليين.

ينتمي السعديون إلى أسرة شريفة تنحدر من نسل "محمد النفس الزكية" من أبناء الحسين بن علي، وينسبهم آخرون إلى عرب بني سعد بن بكر لذا سموا بالسعديين، ويقول بعضهم بأنهم تسموا بهذا الاسم لأن المغرب سعدت بهم، ويرفض السعديون هذا النسب الأخير لأنه يبعدهم عن الشرف الذي يحرصون عليه أشد الحرص.

وترجع عوامل تأسيس الدولة السعدية إلى عاملين أساسيين وهما العامل الديني والسياسي:

-السعديون أشراف فهم يرون أنهم أحق بالملك من بني وطاس الذين فشلوا كليا في ضم المغرب في وحدة سياسية متماسكة.

-كان من الضروري توحيد صف المقاومة الشعبية التي تصدى لها على الخصوص الصلحاء والمتصوفة ولم يكن بين شخصيات المغرب أحسن مقاما من الأشراف الذين كانت لهم في نفوس المغاربة مكانة عظيمة.

-كان الخطر الأجنبي على البلاد قد تفاقم حتى لم يعد للمقاومة الشعبية فائدة تذكر إذ لم تبادر دولة محكمة الجهاز إلى تبنيها وتنسيقها.

هاجر السعديون إلى بلاد درعة من بلاد السوس جنوب مراكش في القرن 7 هـ وفي سنة 1509 طالب أهل السوس محمد القائم بأمر الله السعدي بتولي قيادتهم في حركة الجهاد واعترف بنو وطاس به على أمل تلخيص البلاد من الحاميات البرتغالية، وبعد وفاة القائم 1517م انتقل الحكم في اقليم السوس إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج وقد إرتفع شأنهما بنجاحهما في طرد البرتغاليين في مديني آسفي وآزمور في الجنوب بينما في سنة 1539-1541م أصبح بإمكانهما الخروج من تبعية بني وطاس ،وقد عرض محمد الوطاسي على السعديين إلا أن محمد الشيخ (لقب نفسه بالمهدي) رفض لرغبته في ضم فاس لسلطانه ودخل في صراع مع محمد الوطاسي وأخيه في نفس الوقت حتى تمكن من دخول فاس وإعلان نفسه سلطانا عليها عام 1549م وبهذا يعد محمد المهدي المؤسس الحقيقي للأسرة السعدية، وقد عمل هذا الأخير من أجل تخليص موانى الشمالية من البرتغاليين كما فعل في الجنوب من قبل واسترد أصيلة والقصر الصغير 1549سنة وسنة 1550ولم يبق لدى البرتغاليين سوى طنجة وسبتة ومزغان يسهر على الدفاع حاميات ضئيلة لا تتجاوز 2500 رجل .

تحرك أبي حسون الوطاسي نحو الاستغاثة بأطراف عديدة لاستعادة حكمه بما فيها الدولة العثمانية، التي أرسلت تعليمات لصالح رايس وقام هذا الأخير بغزو مراكش وتمكن من الوصول إلى مدينة فاس ونصب أبو حسون على العرش ولكن لبضعة أشهر فقط 1554م لأن المهدي سرعان ما استعاد عاصمته.

وبعد مقتل محمد المهدي تولى ابنه محمد بن عبد الله الغالب وقد دخل في صراع ضد البرتغاليين والعثمانيين على السواء أين قاد الحسن بن خير الدين حملة عليه سنة 1557م لكنه انهزم، وحاول فرض حصار على البرتغاليين لاستعادة حصن البريجة لكنه فشل، ومن مشاريعه العمرانية تشييد مسجد الأشراف، تجديد مدرسة ابن يوسف، وبعد وفاته سنة 1574تولى ابنه ابو عبد الله المتوكل بالله، لكن حكمه لم يطل لأن عمه انتزعه منها بمساعدة العثمانيين سنة 1576م.

إن أهم ما ميز المغرب إبان فترة حكم السعديين هو بروز الكثير من الأحداث السياسية الداخلية والخارجية تصدى لها السعديون بكل قوة وسخروا كل الإمكانيات المتاحة من أجل الحفاظ على ملكهم.

أ-معركة وادي المخازن 4 أوت 1578م:

لم تتوقف أطماع البرتغاليين في المغرب رغم تراجعهم عن الثغور، وظلوا ينتظرون الظرف الملائم للوثوب عليه، وهذا سيظهر جليا أثر أزمة العرش التي انطلقت بعد وفاة عبد الله الغالب، حيت انه وبعد تمكن عبد الملك من الانتصار على ابن أخيه محمد المتوكل سنة 1576م، التجأ هذا الأخير إلى البرتغاليين لطلب مساعدتهم مقابل التنازل لهم عن الشواطئ المغربية. وكان على عرش البرتغال آنذاك الملك دون سيباستيان (1557-1578) ذي التكوين المسيحي الكاثوليكي المتشدد، والذي كان متحمسا لتحقيق حلم البرتغاليين بالتوسع بالمغرب بهدف تحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية واستراتيجية.

ومن ثم استغل الفرصة وقاد قوة عسكرية كبيرة وضمنها حشدا من المسيحيين المتطوعين لغزو المغرب رفقة حليفه المتوكل، ولما علم السعديون بنبأ الغزو قاموا بالاستعداد لهذه المواجهة بتعبئة طاقات هامة ومتنوعة، فقد استثمروا الحماس الوطني الذي أثاره الغزو البرتغالي وجندوا أعدادا هائلة من المغاربة ، كما وفروا الأسلحة المتطورة خصوصا النارية التي اهتموا بها منذ انطلاق حركتهم عن طريق الاستيراد وحتى عن طريق الصنع المحلي، إذ توفر السعديون على مصانع للأسلحة والذخيرة في تارودانت ومراكش وفاس، تستغل معادن النحاس والحديد وملح البارود، كما زاد من فعالية القوة السعدية عملية التخطيط للمعركة واختيار موقعها وتوقيتها، حيت تم استدراج جيوش العدو قرب وادي المخازن في 4 أوت 1578م. وهكذا التقى الجيشان في المعركة التي سميت باسم موقعها، وهي معركة وادي المخازن، وبعد كر وفر من الجانبين انتهت المعركة وأسفرت عن خسارة الجيش البرتغالي وأعوانه من المغاربة والأوربيين وفراره أمام الجيش المغربي ولم يبق أمامهم إلا الاستسلام أو الموت فكانوا بين مستسلم وغريق وهكذا مات في هذه المعركة ثلاثة ملوك وهم (محمد بن عبد الله- المسلوخ، وأبو مروان بن الشيخ- عبد المالك، ودون سباستيان).

وقد حقق الجيش المغربي السعدي خلال المواجهة انتصارا واضحا أعطاها أبعادا تاريخية عميقة، فقد أدى الانتصار من جهة إلى انهيار القوة العسكرية والمعنوية للبرتغال والدول الحليفة، وهو ما وضع حدا للأطماع الاستعمارية بشأن المغرب، ومن جهة أخرى عمل الانتصار على تقوية المغرب وتعزيز مكانته. وفي مراكش جنى أحمد أخ عبد الملك ثمار هذا النصر إذا

آل إليه الحكم ولقب بالمنصور السعدي (1578-1603م) وفسح المجال أمامه ليصبح من أعظم سلاطين الاسرة السعدية، وحسن علاقاته بالدولة واعتنى بمراكش وأقام بها قصرا واهتم بشؤون الجيش واستطاع فتح السودان.

أحمد المنصور حكم الدولة السعدية، ويعتبر حكمه أحد أزهى عصور الدولة السعدية حيث توسعت الدولة، ففي "عهده غزى المنصور السودان الغربي وبلاد غانة بين سنتي 1590- 1591م، أين بدأ عصر جديد من التجارة الصح ا روية، بالإضافة إلى تهاطل ثروة الذهب عليه، وكون المنصور من أبناء السودان ما يعرف بجيش الرقيق.

كما قام المنصور السعدي بتنظيمات داخلية إدارية ومركزية وحتى عسكرية للنهوض بالبلاد؛ فكانت الإدارة المركزية للدولة السعدية مكونة من عدد من العناصر السياسية والإدارية والعسكرية والمالية ومن أبرزها نجد:

-السلطان: الذي كان يحتل الصدارة في جهاز الحكم، بحيث كان يعد أعلى سلطة في هذا الجهاز، وقد حمل المنصور لقب الخليفة كغيره من الملوك السعديين تأييدا لأحقيتهم بخلافة المسلمين بذل العثمانيين، بحكم أصلهم النبوي الشريف.

-الحاجب: وهو مكلف بتنظيم العلاقات بين الخليفة وباقي كبار الدولة.

-الوزير: وهو بمثابة الوزير الأول حاليا. يشرف على تنفيذ السياسة العامة للبلاد.

-كاتب السر: وهو الكاتب الخاص للخليفة. والمسؤول عن ضبط مراسلات المنصور الداخلية والخارجية، يساعده مجموعة من الكتاب.

-صاحب خزائن الدار: وهو بمثابة وزير المالية حاليا. ويتكلف بالسهر على ضبط مداخيل الدولة وصرفها.

والملاحظ أن موارد الدولة اتسعت بشكل كبير في عهد المنصور، حيث شملت إلى جانب غنائم الحرب، الجبايات وكانت تتكون من الزكاة وضريبة الخراج وكانت تمس على الخصوص القبائل السهلية التي اعتبرت مفتوحة بالقوة، وضريبة الجزية على اليهود، ومختلف الملازم المفروضة على التجار وأصحاب الحرف، كما شملت المداخيل عائدات استغلال الدولة لعدد من المناجم، واحتكارها لصناعة السكر ومداخيل الجمارك.

-أصحاب المشورة: وهم الهيئة الاستشارية التي يلجا إليها المنصور في حالة عزمه على اتخاذ بعض القرارات، ومكونة من شخصيات عدة كقواد الجيش والفقهاء وزعماء بعض القبائل.

-صاحب المظالم: ويتكلف بتلقي الشكايات ورفعها إلى المنصور للبث فيها.

كما قام المنصور بتقوية الجيش وتطويره باعتباره الأداة الفعالة في ضبط الأمن والدفاع عن حوزة البلاد، وهكذا قام بإنشاء جيش قوي مكون من جيش نظامي وآخر من المتطوعين:

فبالنسبة للجيش النظامي: تكون من الأتراك والأعلاج والأندلسيين ومن انضاف إليهم من أهل سوس ومراكش، وقسم إلى فرق جعل لكل منها لباس خاص، وعين على رأسها قائدا وضباطا مرتبين ترتيبا عسكريا مستمدا من العثمانيين. وكان يخضع بانتظام لتدريبات خاصة، كما تم تجهيزه بالأسلحة النارية مثل المدافع والبنادق الى جانب الأسلحة التقليدية، كما شرع المنصور في أواخر حياته في تقوية الأسطول البحري.

أما فيما يخص جيش المتطوعين: فقد عرف بجيش عرب الدولة، وهو مكون من القبائل الموالية للدولة، وكانت تمد المنصور بقوات من الفرسان والمشاة مقابل تمتعها ببعض الامتيازات مثل إعفائهم من الضرائب وإقطاعهم بعض الأراضي.

وقد كان لهذا التنظيم الإداري والعسكري دور مهم في إحكام سيطرة الدولة على جميع مناطق المغرب وإقرار الأمن داخليا، وساعد المنصور بالتالي على التفرغ لتعزيز مكانة المغرب على الصعيد الخارجي.

لكن موت المنصور سنة 1603م أدى إلى تقهقر رهيب للدولة السعدية، حيث تراجع نفوذها ودخلت مرحلة الصراعات الطويلة بين الأبناء، وحتما فإن هذا قد أثر بشكل جلي على الدولة، بالإضافة إلى رفض الكثير من قبائل سوس الانصياع لمطالب المخزن المرهقة.

دارت المعارك بين الأشقاء حيث انهزم المولى زيدان أما جيش أخويه فارس والمأمون في صراعهم على فاس، حيث دخل المأمون فاس واستقل بها لنفسه بعد أن انقلب على شقيقه فارس، في حين التجأ المولى المأمون زيدان إلى الأتراك في تلمسان ثم إلى سجلماسة التي بايعه أهلها سنة 1607م.

هاجم زيدان فاس ودخلها لفترة من الزمن، أين أعاد أبو فارس ومحمد الشيخ فتحها سنة 1609م، ولم تتوقف الصراعات عند هذا الحد أين انتقلت للأبناء مجددا فقتل عبد الله بن المأمون عمه فارس سنة 1609م، واستقل لفترة بالحكم، أين تمكن زيدان من الاستيلاء على العرش وبقي على رأسه إلى غاية سنة 1627 م، أين خلفه ابنه عبد الملك بن مروان الذي قتل سنة 1631م، ثم تولى خلفا له الوليد بن زيدان الذي قتل هو الآخر سنة 1636م، ثم الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام 1653م، ثم ابنه العباس أحمد الذي قتل عام 1658م.

وهكذا فإن هذا الصراع والتقتيل كان لابد من أن يفجر الدولة وينهك طاقتها ويظهر قوى جديدة، فظهرت حركات دينية تطالب بالجهاد، وتوجيه الرأي نحو الخارج، فظهرت حركة أبي محلي، سنة 1611م، والحركة العياشية تحت قيادة محمد العياشي التي انكسر شوكها سنة 1641م، ثم الحركة الدلالية التي انطلقت من منطقة الدلاء تحت قيادة زعيمها محمد بن أبي بكر أين تمكنت من هزيمة الجيش السعدي في معركة بوعقبة.

وأعلن مولاي الرشيد نفسه سلطانا على المغرب بعد مقتل آخر السلاطين السعديين سنة 1659م، أين احتل مراكش سنة 1668م وأعلن قيام دولة العلويين، وهكذا انتهى عهد السعديين التي كانت أول دولة عربية شريفة تحكم المغرب منذ دولة الأدارسة.

2-الدولة العلوية 1659-1912:

لقد كان المغرب مع نهاية الدولة السعدية وبداية عهد الدولة العلوية مجزأ إلى عدة مناطق، يتقاسم حكمها بعض من بقي من الأمراء السعديين من جهة، وبعض المرابطين من أمثال الدلائيين من جهة أخرى، أين كانوا يسيطرون على فاس وضواحيها، بينما استأثر مرابطون آخرون بباقي أجزاء المغرب، في حين سيطر الأتراك العثمانيون على الأجزاء الشرقية للمغرب. أما بعض سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط أو تلك المطلة على المحيط الأطلسي فكانت في قبضة الإسبان والبرتغال. وكان لزاما على حكام المغرب العلويين التعامل بحذر وحزم مع هؤلاء من أجل فرض سلطانهم على المغرب، والتوسع خارجه شرقا إذا اقتضى الأمر.

يرجع نسب الأشراف العلويين إلى علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من جاء من هذه الأسرة هو المولى "حسن بن القاسم" في القرن 7هـ، واستوطن بسجلماسة وكان المولى علي الشريف جد الأسرة العلوية الشريفة قد قدم مواقف مشرفة في الجهاد في السودان، فكان أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات، ولم تقتصر شهرته على المغرب فقط وانما ذاع صيته حتى في الأندلس أيضا ، وهو ما أوغر صدر أبو حسون السملالي المعروف بأبي دميعة الذي استولى على القطر السوسي ودرعة، سجلماسة، فأوجس خيفة من المولى علي الشريف فألقى القبض عليه في السوس وكان أبو حسون سيء السيرة وضاق الناس منه ذرعا وبايعوا المولى علي الشريف 1050هـ وبذلك بدأ تأسيس هذه الدولة .

استولى المولى علي الشريف (1635-1664م) على درعة وعمل على بسط نفوذه كما عمل على بسط نفوذه على باقي أجزاء المغرب كي تتوحد السلطة كلها بيد حاكم واحد مما جعله يصطدم مع أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي زعيم الدلائيين الذي امتد نفوذه آنذاك إلى فاس ومكناسة وسلا ،ووقعت بينهما موقعة القاعة التي انهزم فيها علي الشريف واقتسم الطرفان النفوذ بينهما بموجب الصلح الذي جمعهما ،بعدها وجه المولى علي الشريف أنظاره إلى الأقاليم الشرقية فاستولى على وجده وشن غارات على تلمسان، وبعد وفاة المولى علي الشريف نشب نزاع بين ابنيه انتهى بانتصار **المولى رشيد** الذي حكم المغرب خلال (1664-1672م)استولى على تازا، سجلماسة فرض حصار على فاس لكن دون جدوى، بعدها عمد إلى إغداق العلماء بالمال والهبات كي يكمن له المحبة لدى الخاصة والعامة ثم توجه إلى مكناسة وقضى على محمد الحاج الدلائي كما استولى على مراكش وطرد منها حاكمها أبا بكر الشيباني كما توجه إلى البلاد السوس وقضى على نفوذ أبي حسون السملالي فيها وبهذا حقق وحدة المغرب السياسية .

قام بتنظيم الجيش وضرب نقودا مستديرة وازدهرت العلوم والآداب في عهده، ومن أعماله العمرانية في عهده بناء قنطرة نهر سبو وتجديد قنطرة نهر الرصيف.

يعتبر المولى الرشيد المؤسس الحقيقي لدولة الأشراف العلويين، فقد عرف المغرب في عهده وحدة كاملة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه. وبعد وفاته آل حكم المغرب لأخيه المولى إسماعيل.

حكم المولى علي إسماعيل (1672-1727م) بعد وفاة والده، واجه في البداية اضطرابات عديدة ودخل في حروب في كل من مراكش وفاس والسوس ،واتخذ من مكناس عاصمة له ،عمل المولى إسماعيل بعد ان استقر له الأمر بإقرار الأمن الداخلي بالإضافة إلى تأمين حدود المغرب وتطهير الشواطئ والثغور المغربية من المستعمرين الأبراج وأكثر من التحصينات: 76 قلعة بها (100-500 شخص)، واسترد بعضا من المدن التي كانت بيد الاسبانيين كمدينة طنجة من الانجليز 1664م والمعمورة من الاسبان 1681 وحرر العرائش 1689 وأصيلا سنة 1691، وعرفت علاقاته بالدولة العثمانية توترا لهجماته على الحدود الغربية للجزائر واتفقا الطرفان على واد التافنة حدا فاصلا بينهما.

عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790م) بعد وفاة إسماعيل حلت اضطرابات وحرب أهلية بالمغرب لمدة 30 سنة أهلية بسب الصراع بين أبنائه على الملك، أضف إلى ذلك تدخل جيش العبيد الذي أسسه في شؤون التولية والعزل للحكام، إلى أن تولى محمد بن عبد الله الذي استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها، وبعد تولى عدد من السلاطين إلى غاية عهد عبد الحفيظ بن الحسن (1908-1912) في عهده فرضت الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى، بعد أن فرضت عليه فرنسا توقيع اتفاقية معها في 1912/03/30، واقتسمت فرنسا مجال المغرب الأقصى مع اسبانيا فكان لها الجزء الجنوبي ولإسبانيا الجزء الشمالي وابتدأ عهد جديد في تاريخ المغرب.

شجرة عائلة السعديين:

